خصوصية الهوية النسوية وتمثلات الثقافة في رو اية «سيرة شغف» لربيعة جلطي

Specificity of Feminist Identity and Representations of Culture in the Novel "Biography of Passion" by Rabia Jalati

ط د/ دلال هلالات [1,*]، أ.د/ عقيلة بالي محجوبي [2]

[1] جامعة سطيف 2، (الجزائر)، da.hellalet@univ-setif2.dz

[2] جامعة سطيف 2، (الجزائر)، bm.akila@yahoo.fr

مخبر السرديات والأنساق الثقافية –سطيف 2-

تاريخ الإيداع: 2023/04/01 **تاريخ المراجعة**:2023/05/29 **تاريخ النشر**: 2023/12/30

ملخص:

تعد الرواية جنسًا أدبيًا شاملًا ذا بنية شديدة التعقيد، متراكمة التشكيل تتلاحم فيما بينها وتتظافر لتشكل لنا سردا أدبيا ؛ باتخاذها مرتكزات فنية تتكئ عليها في نسج أحداثها، و لمّا كانت الرواية وسيلة فنيّة للتعبير عن الحياة والواقع،لجأت الأنثى لعوالم الكتابة للتعبير عن الذات والعالم من وجهة نظر سردية نسوية، والتصدي للدونية التي فرضت عليها ،و هذا ما ميّز كتابات ربيعة جلطي و لعلّ رواية"سيرة شغف"من الروايات التي جسّدت قدرة المرأة العربية وشجاعتها في تجاوز أزماتها الذاتية والهوياتية التي تعيشها، في قالب روائي أدبي يحمل سماتها الأنثوية الفكرية، ويؤسس لنظرتها للعالم .

تروم مساعي هذه الدراسة إلى الكشف عن مختلف تمظهرات الهوية النسوية ومساءلة الأنساق الثقافية التي مثلت عالم المرأة في مجتمع بطريركي طمس هويتها، واحترف كرهها وامتهانها، وإسكاتها لفترات طويلة.

الكلمات المفتاحية: السير ذاتية- السرد النسوي –الهوية-الأنساق الثقافية.

***Abstract**:The novel is considered a comprehensive literary genre with a very complex structure, accumulating formations that coalesce with each other and join forces to form a literary narrative for us, by taking artistic pillars to lean on in weaving its events, and since the novel is an artistic means to express life and reality, the female resorted to the worlds of writing to express herself and the world from one point of view.*

Considering a feminist narrative, and confronting the inferiority that was imposed on her, and this is what distinguished Rabia DJALTI's writings, and perhaps the novel "Sirat Shaghaf " is one of the novels that embodied the ability and courage of Arab women to overcome their personal and identity crises in which they live, in the form of a literary novelist that bears her intellectual feminine features, and establishes her views of the world .

* المؤلف المراسل.

The endeavours of this study aim at revealing the various manifestations of feminist identity and questioning the cultural patterns that represented the world of women in a patriarchal society that blurred their identity, professionalized their hatred and humiliation, and silenced them for long periods.

Key words: *Autobiography - feminist narrative - identity - cultural patterns*

تمهيد:

الرواية كيان فني ينتظم أفكارًا معينة، وهو بناء فني له ألف وجه، يرتدي ألف رداء، ويتشكل أمام القارئ تحت ألف شكل، على حد تعبير (عبد الملك مرتاض)، مما يتعذَّر معه تعريفها تعريفًا جامعًا مانعًا[1].

وتتعدد أنماط وأشكال الرواية، بين التاريخي والفني والفلسفي، وغير ذلك من أنماط الرواية، وتأتي رواية السيرة الذاتية أو (السيرذاتية) من الأشكال الروائية المعروفة.

والسيرة الذاتية، في اللغة عبارةٌ عن مركب ثنائيّ، فالسيرة تعني في اللغة "الطَّرِيقَةُ. يُقَالُ: سارَ بِهِمْ سِيْرَةً حَسَنَةً. والسَّيرَةُ: الهَيْئَةُ...(أو)حَدَّثَ أَحاديث الأَوائل. وسارَ الكلامُ والمَثَلُ فِي النَّاسِ"[2].

أمّا في الاصطلاح، فقد حظي مفهومُ السيرة الذاتية بقدرٍ وافرٍ من التَّعريفات، من أبرزها ما يلي:

- "الأدب الذي يعني بتصوير الذات، وإصدار الحكم عليها، مع محاولة التجرد من العاطفة تجاهها[3].
- "كتابٌ يروي حياةَ المؤلِّف بقلمه"[4].
- "نوعٌ من الأدب يجمعُ مابين التَّحرِّي التأريخي والإمتاع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد، ورسم صورة دقيقة لشخصية من الشخصيات"[5].

ويعود هذا التباين في تعريفات السيرة الذاتية، إلى تباين وتعدُّد الأساليب والأشكال التي كُتبت بها السّيرة الذَّاتيَّة، مع أن السِّمات والمقومات الفنية فيها تبدو متقاربة إلى حدٍّ بعيد، ولهذا السبب، لا نكاد نجد تعريفًا واضحًا ومحكمًا للسِّيرة الذَّاتية، في الأدب العربيّ المعاصر، الأمر الذي تعزوه إحدى الباحثات في هذا المجال: إلى سببين رئيسين، هما: حداثةُ هذا الجنس الأدبيّ، وعدمُ وجود نظريَّة ثابتة في قراءة النُّصوص وتحليلها[6].

وأقربُ التعريفات توضيحًا لأدب السيرة الذاتية، وطبيعته الفنية التي تجمع بين الفن والسيرة، هو أنه "عملٌ لغويٌّ، نثريٌّ، سرديٌّ، استعاديٌّ، يقوم به مؤلف واقعيٌّ، ويركِّز فيه على شخصيَّته وحياته الخاصَّة، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، متوخِّيًا الحقَّ والصِّدق، شاملًا جوانب شخصَّيته المختلفة، متتبعًا خطًّا زمنيًا ممتدًا بين مرحلتين يقع بينهما أغلبُ حياته، وفي الغالب يكون طرفاه مرحلة الطفولة في البداية، ووقتًا يسبق أو يُزامن مرحلة الكتابة في النهاية"[7].

وممّا يجدر ذكره فإن أول من أسَّس لفن السيرة الذاتية هو الأديب الفرنسي (جان جاك روسو) في القرن التاسع عشر، في سيرته الذاتية: الاعترافات"[8].

وأما في أدبنا العربيِ الحديث فيُعدُّ الأديب المصريُّ (طه حسين) رائد هذا الفن الأدبي، فكتابه (الأيَّام) يَنظر إليه الكثير من النقاد، على أنه أول سيرة ذاتية في أدبنا العربيِ المعاصر، بمفهومها المتداول اليوم؛ إذ تناول عميد الأدب العربي قصة صعوده من قريته الفقيرة في المنيا، حتى سفره إلى فرنسا، وحصوله على درجة الدكتوراه، وصاغ ذلك كله في إطار فني متكامل.

أولا: تمظهرات خصوصية الهوية النسوية:

استهدفت ربيعة جلطي تفكيك الأنساق المضمرة للثقافات المهيمنة على المجتمع، وهو الأساس الذي ارتكز عليه الخطاب النسوي في رواية (سيرة شغف)؛ لأن الثقافة اكتساب عقلي بفعل البيئة التي تعبر عن ثقافة معينة، وهي التعبير الرمزي عن العادات المكتسبة، وتنظيم يشمل مظاهر الانفعال والأفكار، ومن ثمّ فقد "ارتبطت الحداثة سواء في الأدب أو الفن، بكل التوجهات الطليعية والبوهيمية والتجريبية، التي تحرر الفنان من التقاليد والتراكمات القديمة، وتطلق العنان لكل شطحاته وهواجسه ومظاهر اغترابه"[9].

مثَّلت المسامرات بين الرفيقات القديمات: مريم-طاوس- فاطمة- ربيعة ممارسة للأنوثة المقموعة في ظل مجتمع يحترم الأقوى، ويؤسِّس للخطاب الذكوري، فيما كرَّس شطرًا من جهده لإضعاف الأنثى،و لإبراز ملامح الذكورة المتفوقة منذ نعومة أظفارها الأولى؛ بفعل التمايز البيولوجي بين الذكر والأنثى:

"نسيت المحامية فينا أنها محامية، والطبيبة أنها طبيبة، والمهندسة أنها كذلك، وكأننا عبرنا جسر العمر بسلام على جناح عصفور طليق، نتحدث جميعنا في الوقت نفسه، بالكاد نسمع أنفسنا، نسمع بعضنا البعض، كأننا فتيات صغيرات بالكاد:

- أتذكرين تطاير أزرار قميصك في ساحة المدرسة على إثر ضغط حجم صدرك، أوَنسيتِ حين كنا نهرع لمساعدتك لالتقاطها وسط الطريق؟ قالت خوخة وهي تغمض عينها اليسرى بمكر، احمرت وجنتاي ثم هرَّت ضحكاتنا العالية مثل أمواج عاتية"[10].

ولاشك أن حرص المؤلفة على إيراد ذلك اللقاء بين الرفيقات القديمات قد تماهى مع توجه المؤلفة النسوي، وعنايتها بقضية المرأة، مما تجلى في روايتها: قوارير وحنين بالنعناع؛ إذ كرَّست المؤلفة قلمها للتنديد بالمجتمع الخاضع لسيطرة الذكر ومركزية القضيب، فضلًا عن التحذير من مغبة الممارسات البشرية التي اتسمت بالحيف والجور على الأعراف والقيم الأصيلة، وانحراف الجنس البشري عن مساره في تعمير الأرض، وتحوله إلى إفنائها بتلك الممارسات التي ندَّدت بها المؤلفة.

من هنا، مثَّل اللقاء الذي دونت المؤلفة تفصيلاته المعادل المجتمع للمجتمع الذكوري، والذي تذكرت فيه المجتمعات ذكريات الطفولة على النحو الذي أشار إلى الترميز السيميائي لجسد الأنثى بوصفه علامة، إذ تجلى ذلك في ذكرى تطاير الأزرار بفعل ضغط الصدر، وهو إثبات لحقيقة بيولوجية لها أبعادها لدى الكاتبة التي تعنى برصد التحيزات الأيديولوجية، وكتاباتها من واقع المنظور المهمش للمرأة.

أما المنظور الاستطيقي، فيتمثل في القصة بوصفها حكاية واقعية، أي: البناء الشكلي والفني للرواية؛ كون "الحكي يقوم على دعامتين: أولاهما: أن يحتوي على قصة ما، تحتوي على أحداث معينة، ثانيهما: أن تعيَّن الطريقة التي تُحكى بها هذه القصة، وتسمَّى هذه الطريقة: سردًا"[11].

وقد أوردت المؤلفة عديدًا من المواقف التي اعتمدت على الواقعية لمواقف قابلتها المؤلفة في حياتها العملية، ومن ذلك وصفها لمشاهد من المجتمع اليمني في معرض زيارتها لليمن للقاء الشاعر اليمني (عبد الله البردوني):

"أسير الآن ببطء في شارع شعبي، لا شيء يدل على الثراء به، يغص بالذاهبين ولذاهبات والرائحين والرائحات، رؤوس الرجال مائلة إلى الخلف يدفعون بصدورهم المزينة بخناجر الأبهة، تلمع عيونهم اليمنى أو اليسرى في الحنك الضاغط مضغة (القات)، أما النساء، فينثرن حكاياتهن بصمت... كان أن يعرف أحدهم أنني جزائرية حتى تلتف حولي القلوب"[12].

وقد تناولت المؤلفة مشهدًا للحياة اليومية للمجتمع اليمني، ورصدت العلاقة التناظرية للرجل والمرأة هناك؛ إذ يلبس الرجال الزي اليمني، المزيَّن بالخناجر، ويتناولن (القات)، وهو نوع من النبات الذي يحتوي على مادة مخدرة، وغلب على الفقرة السرد التقريري الذي يعكس اكتفاء المؤلفة برصد مظاهر الحياة في المجتمع اليمني، وبدت الأزياء الواردة كعلامة على بساطة المجتمع، وعدم تسرب روافد المدنية إليه بالدرجة التي تحيد به طبيعته المتوارثة.

وتجلى في الفقرة أعلاه المنظور الثقافي للخطاب النسوي الذي تتبناه المؤلفة، وهو المنظور الذي تدرك فيه الذات ملامح كيانها الفكري والبيولوجي، ومن ثم، تبرز لديها تمثلاتها للآخر، على النحو الذي تتبلور فيه مواقفها الجنوسية من الآخر، وينسحب ذلك كله على المجتمع؛ ليتسع نطاق التمثلات حتى يشمل العالم بأسره والكون كله.

ثانيا: تمثلات الثقافة في جماليات الأدب النسوي:

برزت تمثلات النسق الثقافي (Cultural System)للكون لدى (ربيعة جلطي) في معرض حديثها عن الشاعر (رسول حمزاتوف) الشاعر الداغستاني الذي يدعو في شعره، إلى قيم الخير والمحبة والجمال، فيما قارنت بين القوة الناعمة لشعره في مقابل القوة العسكرية التي تهدد العالم:

"أيها العالم.. خذلتك قوة العنف وجبروت المال.. جرِّب ولو مرة قوة بتهوفن ورسول حمزاتوف وغوتة والمتنبي وشركائهم.. إنها القوة الناعمة، القوة الصلبة في رهافتها، فلن تحتاج أيها العالم إلى تحطيم الجدران"[13].

إذ برزت تمثلات الأنثى لما حولها في نظرة جمعت بين متناقضين: السلام الذي تتبناه المؤلفة، وترى فيه القوة الناعمة التي تجمع البشرية، يرفع لواءها الشعراء والموسيقيون والمؤلفون والكتَّاب في مقابل القوة

العسكرية التي نشرت الخراب والدمار ومن ثم، فقد حملت الفقرة دعوة مقرونة بأسبابها تبرز رؤية ثقافية لأنثى تدرك ثقافة عصرها من حروب ودمار، وتستعيض عنها بما يضمن للبشرية سعادتها، ويحفظ لها سلامها.

وبرز الجانب الحضاري وتمثلات المؤلفة للآخر في تناولها لسيرة زعماء الحركة الثقافية التنويرية بالجزائر، مثل: محمد قنانش:

"أنت أيضًا سيغيظك الحال، وستردد:

– لماذا أنا لم أتعرف على محمد قنانش كذلك.. أين الخلل؟

– نعم، مفيد أن ندرس وندرِّس شخصيات تاريخية وأدبية من خزانة المشرق العربي، ومن بقية الخزانات الإنسانية؛ لتعرف على بعض مؤلفاتهم. ولكن، كم جارح أن نُركِن في هاوية النسيان كما من شأنه أن يبني تاريخنا السياسي والاجتماعي والثقافي... وحين سمعت برحيل الأستاذ محمد قنانش وهو في إسبانيا، بكيتُ بحرقة من الاغتراب الذي يؤذيك و أنت في بلدك، أكثر مما تؤذيك الغربة الجغرافية"[14].

حاولت الكاتبة خلق حالة من الاعتزاز برموز الثقافة الجزائرية، والرغبة في تعريف الأجيال القادمة بها، ويشير ذلك إلى هوية نسوية مستنيرة تعتز بالشخصيات المعتدلة في مشهد تغيب فيه التحيزات البيولوجية، وتعتدل فيه الكفة ليتساوى فيه الرجل والمرأة، ويمتد ذلك ليطال الحالة الفكرية للمجتمع المنشود ككل؛ ليتوحد الطرفان في منظومة مجتمعية ذات ملامح فكرية مستنيرة، وظهر ذلك في بكاء المؤلفة لرحيل الفقيد.

وتكررت النظرة نفسها في معرض حديث المؤلفة عن (السي امحمد فرحات) المحامي والمناضل الجزائري الذي وقف مواقف وطنية مميزة في تاريخ الجزائر، وأبدت إعجابها بما أسمتها: "النخبة الوهرانية والجزائرية، منهم: عبد اللطيف بن شهيدة، محمد بهلول، علولة، محمد عبو، مدين بنعمر، محمد قنانش، عدي الهواري، باهي ماحي، رضا مالك، علي هارون ومحمد بوضياف الذي أصبح رئيسًا للبلاد. يحرص السي امحمد فرحات على أن تظل الصداقة صافية حتى وإن تغيرت الظروف السياسية والتاريخية أو اختلفت الآراء"[15].

اتسم الخطاب النسوي في الرواية ككل بالاعتزاز بالرموز الفكرية المستنيرة، في مقابل دعوتها للوقوف صفا واحدا لمواجهة خطر التطرف والإرهاب اللذان اختطفا عديدا من رموز التنوير في المجتمع الجزائري، ممن عدّدتهم المؤلفة أعلاه، وأشهرهم (عبد القادر علولة) الذي راح ضحية الإرهاب الغادر؛ إذ قامت جماعة مسلحة باغتياله.

من هنا، جاء الخطاب النسوي لدى (ربيعة جلطي) مركزا على ضرورة إنقاذ المجتمع البشري بأكمله من العنف والحروب، والتطرف الديني، وهيمنة المجتمع الذكوري على الأنثى، وسائر الأفكار التي لا تنتمي للدين الذي يتم الزج به في إطار سعي أولئك الانغلاقيين لبسط سيطرتهم على المجتمع والوصاية عليه، واتهام كل من يخرج عليهم، ولو بصحيح ما أثبته العلم، بالكفر والزندقة، والمروق من تعاليم الدين، وهي قضية جوهرية تتبناها (ربيعة جلطي) في كتاباتها المختلفة.

نلمح لدى (ربيعة جلطي) القدرة على بناء الذات الأنثوية، والقدرة على استعادة سلطة التمثيل، وإعادة توجيهها نحو استبيان ملامح الذات[16]، مما برز في تمثلها لظاهرة الإرهاب كرأس حربة موجهة للمجتمع الجزائري، وبرز ذلك في اغتيال المفكر الجزائري (عبد القادر علولة)؛ إذ تمثلت الذات الأنثوية المفكرة ندًّا لند للرجل في مشهد العزاء في الفقيد:

"لست أدري كبف وسعت أروقة مطار السينيا كل ذلك الجمع من الفنانين والمثقفين وعشاق مسرح (علولة)، والناس البسطاء، الكل يومئ بيديه وقلبه للطائرة الطبية التي تحمل سبع وهران على متنها... أيام وجاء الخبر الكارثة، الخبر القاصم للظهر: سبع وهران صعد إلى منصة السماء"[17].

وقد تناولت المؤلفة أعلاه المشهد التلقائي المثالي للكون الذي تتمناه، بحيث يغلب عليه التكاتف والتلاحم بين أنصار قضية التنوير الذي يقف للإرهاب بكل قوته، وهو خط التزمت به (ربيعة جلطي) في كتاباتها، ودعت إليه في رواية (حنين بالنعناع)؛ إذ تمثَّلت المبدعين أمل الأرض المنتظر الذي يخلصها من الشرور والآثام: مجموعة من المجنحين الذين يعيشون في القارة السادسة يتابعون ما على الأرض من علٍ وهي تغرق في طوفان الفوضى.

عكست الفقرة مدى استيعاب المؤلفة لنفسها، واعتمادها على انصهار الخطاب الجنوسي الذي يجمع الرجل والمرأة في خندق فكري واحد، بدرجة تتجاوز حالات التقابل الثنائية التي تنبني على الجنوسة، ومتقابلاتها العديدة: القوة مقابل الضعف، العقلانية في مقابل الرعونة، الفحولة في مقابل الأنوثة؛ لتتوحد في مواجهة الأفكار البالية التي أثبت فشلها في معالجة الخواء الفكري، ومنابت التحجُّر الديني الذي بات يثقل كاهل الإنسانية.

مثَّلت (ربيعة جلطي) علاقة التأثير والتأثر في المجتمع الذي ينطوي على الأنثى بوصفها كيانًا اجتماعيًّا هشًّا، فيما مثَّلت الشخصية حدًّا فاصلا بين عالمين: الداخل والخارج، بحيث برزت الشخصية ككيانبين على النحو الذي مكَّنها من استشراف ثقافة (الحد الخارج)، ونظيره: الحد الداخل، مما تجلى في خطابها الموجه لعام (2017م) عند حلوله؛ لتقيم مقارنة بين ثقافة الداخل والخارج في المجتمع البشري عمومًا:

"الكوكب كله قام من فراش المرض للقائِك، منهكًا من وباء الكراهية الخطير المستشري والعدوى، ومن تسونامي الحروب الغبية تتزحلق في الدماء، وتتعثر في المقابر والحروب الجماعية... لا تفزع سيدي، كل عجيب على كوكبنا أصبح (نورمال)، ومع ذلك، أرأيت كم أنت سيدي الجميل الأنيق..."[18].

وقد عمدت المؤلفة إلى إبراز الوجهين المتناقضين للأرض: المظهر الخارجي ذي الطقس الاحتفالي، والذي يرحب بالزائرين، باعتبار العام الجديد أحدهم، فيهرع لإقامة تلك الطقوس الزائفة، في مقابل الحقيقة المزرية التي أوردتها الفقرة، وهو ما عبر عن ثقافتيْ: الداخل والخارج المسيطرة على كوكب الأرض، ونبَّهت إليها المؤلفة بوصفها شاهدًا على العصر، وتبلورت النظرة النقدية النسوية لكل ما يحدث على الكوكب في محورين حرصت المؤلفة على التنويه بهما في جل كتاباتها: ثقافة السلام وقبول الآخر، والتعايش السلمي بكل أشكاله وأدبياته، في مقابل العنف والحروف كثقافة تنذر بالاندثار ومن ثمّ، بات كل عام جديد محض زائر تتوسم الأرض إنقاذها مما تعانيه.

وقد تجلى موقفها تجاه الإنسانية في تناولها اللجنة التي تقيم الأعمال لنيل جائزة (نوبل):

"لجنة (نوبل) هذه المرة مثل الأولاد، وهم منكبون على آلة (القيتار)، يرددون أشعار بوب ديلان. يبدو أنها كانت بصدد البحث المضني عن صوت حكيم عميق مسموع في هذا لزمن الأصمّ، عن شاعر لم تتغير مواقفه الإنسانية منذ نصف قرن، يقول جهرًا ما يتمتمه غيره سرًّا... لجنة نوبل اختارت من مبدعي الأرض من يخاطب الإنسانية عاجلًا وعلى المباشر"[19].

أما تأملاتها في الحياة، وما تنطوي عليه أحداثها من تقلبات، فاشتملت على نظرة ساخرة لتلك الحياة التي لا تفتأ تخدع الإنسان، وتستميله بجميع الوسائل الممكنة، مما نجده في قولها:

"ولكي تلاعبه، وتأسره وتفتنه، وتُرضِيه قليلًا ثم كثيرًا، يحدث أن تفعل شيئًا غريبًا، أن تمزج بين الفصول مثلًا. يا لها الحياة، إنها ساحرة متمرِّسة، وبفركة إصبعين يحدث أن تجمع بين فصلين، تمزج بين الخريف والربيع، وأن تَجُرَّ مارس من جذوع أشجاره البديعة وورود، وتجئ به إلى سبتمبر، فيصير فصلًا جديدًا: فصل (مارسمبر). هكذا، فتزهر الحياة، وتزهو بحلوله، وتستطيع من جديد أن تخلب لب الإنسان، وتستولي على قلبه"[20].

وأبرزت الفقرة نظرة ناضجة، ومنهجًا في تناول تقُّلبات الحياة مما ميَّز الهوية النسوية الثقافية في الرواية؛ إذ نجد مقابلًا لتلك النظرة لدى كبار الحكماء والشعراء، مثل: المتنبي والبحتري؛ لتؤكد المؤلفة فلسفة الحياة في التعامل مع الإنسان، ومكرها به ما أوتيت إلى ذلك سبيل، فتقسو عليه أحيانًا؛ لتنتظر ريثما يتضجر أو يسأم، فلا تسمح له بإدارة ظهره لها؛ إذ سرعان ما تفتنه من جديد، وتغريه بكل الطرق؛ ليُقبِل عليها تارة أخرى.

برزت في الفقرة الطبيعة النفسية الساخرة لدى ربيعة جلطي، وقدرتها على تحليل أحداث الحياة، وتفسيرها من منظور الشد والجذب، بحيث لا تترك للإنسان ملاذًا يلوذ به منها، أو وسيلة للفرار من حبائلها.

وفي موضع آخر، ربطت المؤلفة بين من نال حظًّا من الحكمة، ونظرته الساخرة للحياة والبشر في قولها:

"وحدهم النجباء من تلاميذ الحياة، من تمكنوا إلى الوصول إلى حكمتها القاضية بأن يروا الدنيا بعيون ساخرة، وأن يبصروا الأشياء في مرايا مكسَّرة أو مقعَّرة، مقبَّبة أو مدبَّبة، فيَضحكون بألم وذكاء مما يحيطهم ويحبطهم، ويُضحِكون المتألمين من الناس، فيعالجونهم وهم لا يدرون، ويسخرون من هؤلاء المنتفخين الذين يظنون أنهم سُرَّة العالم، وخميرة الأرض"[21].

وبدت المؤلفة، وقد عمَّمت نظرتها الساخرة لأحداث الحياة، فأعلت من شأن من يتجاهل آلامها، ويسعى إلى السخرية منها، في دعوة لمواجهة تقلُّبات الحياة وصروفها بالسخرية، وهو ما يدعم الوسيلة الناجعة التي تعتقد المؤلفة فيها للتغلب على الهموم والأحزان، في إشارة إلى طبيعة نفسية تكره نظرة الاستعلاء والغطرسة لدى شريحة لا بأس بها من البشر، ممن أقبلت عليهم الحياة فاغترُّوا بها، بينما هم غافلون عن طبيعتها في الكرِّ والفرّ، وقدرتها على التلوُّن، واستمالة الإنسان إلى حظيرتها في دورات متتالية لا ينتبه إليها سوى النجباء بحسب وصف المؤلفة.

وتظهر في الخطاب النسوي لدى المؤلفة سمات ثقافية معينة ميَّزت ملامحه في الرواية؛ إذ نلاحظ قدرة المؤلفة على تذوُّق الفن، ورؤيتها المتكاملة له، وتفسيرها إياه بانبثاقه من نبع إنساني واحد، مما نجده في حرصها على الإشادة بمغني الراي الجزائري (الشاب خالد):

"تقول فيكتوريا: إن القاعة قد غصَّت بالصحفيين المنتظرين له الذين قدموا من جهات إعلامية عديدة، كانت فيكتوريا الإعلامية تمتاز أيضًا بحسها الإعلامي العميق، والفضول الصحفي الذكي المتمرّس... وما هي إلا لحظات حتى دخل الشاب خالد البهو يتبعه فريقه، واتجه نحوي، كانت فيكتوريا بجانبي وهو يغني بصوت مرتفع:

- **"يا الشابة يا الشابة يا الشاعرة بنت بلادي.. يا الشابة يا الشابة يا الشابة بنت دوَّاري"**[22].

وعكست الفقرة وجهة نظر إنسانية تبنَّتها المؤلفة في الرواية عمومًا؛ إذ امتدحت رموز الفن إجمالًا بما يشير إلى أنه نشاط إنساني مختلف الأشكال، متحد المصدر والمصير؛ بحيث تتكامل تلك الأشكال والأنماط، وتتضافر لخدمة المسيرة البشرية، على النحو الذي نلاحظه في إشادتها المتكررة بالروائيين والكتَّاب وصفوة النخبة السياسية، في إيماء إلى اعتزازها بالفن عمومًا، وصفوته في الجزائر، وبخاصة (وهران): منبت الفن الأصيل، فضلًا عن ملاحظتنا تثمين الفن النسوي، لدى ربيعة جلطي، في جميع المجالات؛ إذ أوردت تحت عنوان: "بنات وهران " فما نصُّه؟:

"في الجو أيضا أصوات عذبة لنساء ورجال تتهادى في الفضاء، تعانق نوتات موسيقية تدغدغ السمع والإحساس، وتفرض عليك الاحترام: صباح الصغيرة، وسامية بن نابي، وسعاد بوعلي وجهيدة بن يوسف، وصورية كينان وغيرها.

فنانات حقيقيات سمع منهن الناس أجمل الأغاني فسعدوا، ولكنهن سمعن من الناس ما جرح قلوبهن الرقيقة فأحزنهن... تعاملن بذكاء مع غيرهن من الفنانين والموسيقيين: علولة، وكاكي، ومحمد بختي، وحديدوان، ورشيد بابا..."[23].

سعت الروائية إبراز جهود المرأة الجزائرية في مجال الفن، وكثرة من امتهنَّ مهنة الغناء من الجزائريات اللواتي أمتعن الجمهور بأجمل الأغاني التي لمست الوجدان، وارتقت بالمشاعر، في خطاب يؤكد مشاركة المرأة في جميع الميادين جنبًا إلى جنب بجوار الرجل، مما أشارت إليه المؤلفة بتعاون تلك الفنانات العظيمات مع كبار الموسيقيين، بحيث تتكامل الصورة الإنسانية عمومًا كما خلقها الله في الكون، لا في مجال الفن وحده.

كما ركزت على رفض المؤلفة للمجتمع الذكوري أحادي القطب الذي لا يثمِّن تواجد المرأة ومشاركتها الرجل، وهو ما تجلى في قولها: "**سمع منهن الناس أجمل الأغاني فسعدوا، ولكنهن سمعن من الناس ما جرح قلوبهن الرقيقة فأحزنهن**"[24]، في إشارة إلى كثرة القيل والقال مما ينتهك الخصوصية، ويمسُّ كرامة الفنانة، في إدانة صريحة لتلك الممارسات المجتمعية التي ثبت مع الزمن دورانها حول باطل، والتفافها على الحق في شتى ميادين الحياة، ومخالفته للفطرة البشرية نفسها التي أودعها الله في الإنسان.

ولم يقتصر الخطاب النسوي على جهود المرأة في الفن وحده، بل امتد ليشمل المرأة الجزائرية العاملة في ميادين العمل المختلفة، ومن ذلك ما أوردته المؤلفة عن (نساء السقاية) في الجزائر:

"أراقب حركاتهن المتقنة المعقدة، وهن ينزلن من فوق ظهورهن (الأجديو) الثقيل، المصنوع من الطين خصيصًا؛ ليظل به الماء باردًا عذبًا ومعطَّرًا، أو وهن يساعدن بعضهن بعضًا لرفعه وتثبيته فوق عظمة الورك بعد الملء"[25]

في إشارة واضحة من الروائية صوب قسوة هذه المهنة التي قد يستنكف كثير من الرجال عن مزاولتها، بينما تأتي بها المرأة في مفارقة تؤكد الخطاب الذي استهدفت المؤلفة إيصاله للمتلقي، وحرصها على إيراد التفصيلات التشريحية التي تمكِّن أولئك النسوة من ممارسة هذه المهنة الشاقة؛ لبيان صعوبتها، وتقديرًا لمن قمنَ بها على أتمِّ وجه، واستحقاقهن الشكر على تلك الجهود.

وإجمالًا، يمكننا القول: أنّ تمثلات الهوية النسوية في رواية (سيرة شغف) تجاوزت حدود الذاتية إلى ما يشبه الشهادة على العصر، متبنية اتجاهًا محوريًّا، قوامه التنظير للرؤى النسوية التي خبرت الحياة، فتشكَّلت ملامحه الناضجة التي لا تقل عن نظيرتها لدى الرجال ومن ثم، إقرار أنّ المجتمع لا يقوم إلا بتشارك الطرفين: الرجل والمرأة، من دون تجاهل أو تهميش أحدهما على الآخر.

من أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة مايلي:

- الرواية السير ذاتية عمل فني يجمع بين شكل الرواية وبنائها الفني في إطار توظيف المؤلفة لها في معرض تناوله سيرته الذاتية.

- تعتمد الرواية السيرذاتية على المحور الاستطيقي في الرواية، إذ تتناول أحداثًا واقعية مرَّ بها المؤلف في حياته واقعا.

- اعتمد الخطاب النسوي لدى ربيعة جلطي على تفكيك الأنساق الثقافية المضمرة في المجتمع في إطار تمثلاتها لها.

- اعتمدت رواية (سيرة شغف) على الخطاب النسوي المتزن الذي يميز بين اتجاهين فكريين في المجتمع: الاتجاه المستنير الذي تدعو إليه المؤلفة في مقابل الاتجاه المتحجر فكريًّا، المتشدد دينيًّا، والتي دعت إلى مواجهته.

- اعتمد الخطاب النسوي لدى المؤلفة على تمثلات الآخر من موقعية الأنثى المثقفة، وتجلى الاعتزاز بالرموز الثقافية في المجتمع الجزائري كأحد المحاور الرئيسة التي تأسس عليها الخطاب النسوي في الرواية، مثل: محمد قنانش، امحمد فرحات، وغيرهما من النخبة الوهرانية على حد تعبير المؤلفة.

- برز المنحى الاستطيقي في الرواية، بحيث تعدّدت المواقف الواقعية التي طغت على الرواية كلها؛ كونها تنقل سيرة ذاتية للمؤلفة.

- تمثلت المؤلفة الكون من منظور ثنائي القطبية: الرجل والمرأة في المرحلة المستهدفة التي تبشِّر بفكر جديد يهدف إلى إنقاذ الأرض من الحروب والدمار، وآثار العنف والعدوان اللذين دعت المؤلفة إلى نبذهما.

قائمةالمصادروالمراجع:

1. ابن منظور محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ
2. آل مربع أحمد بن علي، السيرة الذاتية: مقاربة الحدِّ والمفهوم، الرياض، ط5، 1434هـ.
3. بوعزة محمد، تمثلات الهوية النسوية في رواية (دنيا) لعلوية صبح، دراسة منشورة بمجلة (تَبَيُّن)، ع20، 2017م.
4. جلطي ربيعة، سيرة شغف، حبر للنشر،الجزائر، 2017م.
5. راغب نبيل، موسوعة النظرية الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط1، 2033م.
6. الطريطر جليلة، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004م.

7. عباس إحسان، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1996م.
8. عبد النورجبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984م.
9. لحميداني حميد، بنية النص السردي: من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1991م.
10. ماي جورج، السيرة الذاتية، تحقيق: عبد الله صولة - محمد القاضي، بيت الحكمة، تونس، 1992م.
11. مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، ع240، 1998م.
12. المقدس أنيس، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 2000م.

هوامش وإحالات المقال

[1] ينظر: مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، ع240، 1998م، ص11 وما بعدها.

[2] ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 390/4.

[3] عباس إحسان، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1996م، ص104.

[4] عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984م، ص143.

[5] المقدسي أنيس، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 2000م، ص547.

[6] الطريطر جليلة، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004م، ص206.

[7] آل مريع أحمد بن علي، السيرة الذاتية: مقاربة الحدِّ والمفهوم، الرياض، ط5، 1434هـ، ص95.

[8] ماي جورج، السيرة الذاتية، تحقيق: عبد الله صولة - محمد القاضي، بيت الحكمة، تونس، 1992م، ص27.

[9] راغب نبيل، موسوعة النظرية الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، 2033م، ص267.

[10] جلطي ربيعة، سيرة شغف، حبر للنشر،الجزائر، 2017م،ص100

[11] لحميداني حميد، بنية النص السردي: من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1991م، ص45.

[12] سيرة شغف، ص115.

[13] سيرة شغف، ص38.

[14] سيرة شغف، ص31.

[15] سيرة شغف، ص40.

[16] ينظر: بوعزة محمد، تمثلات الهوية النسوية في رواية دنيا لعلوية صبح، دراسة منشورة بمجلة **تَبَيُّن**، ع20، 2017م، ص34.

[17] سيرة شغف، ص70.

[18] سيرة شغف، ص100.

[19] سيرة شغف، ص127.

[20] سيرة شغف، ص135.

[21] سيرة شغف، ص150.

[22] سيرة شغف، ص142.

[23] سيرة شغف، ص147.

[24] سيرة شغف،ص147.

[25] سيرة شغف،ص190.